عدد 17- جوان 2002، ص.179-190

عن الاحتلال والمقاومة بمنطقة سكيكدة

ملخص

تمثل منطقة سكيكدة مخزونا تاريخيا معتبرا وأهمية كبيرة من حيث الموارد الفلاحية والغابية والتجارية و من حيث الموقع الرابط بين نشاطات الدواخل والسواحل؛ لهذا حظيت بإهتمام الفرنسيين منذ الأيام الأولى من إحتلالهم للجزائر العاصمة. إذ لم يتردد القادة في توجيه أكثر من حملة عسكرية واحتلالها يوم 8 أكتوبر 1838 وسميت فيليب فيل. وبعد إحتلالها مباشرة وفدت إليها هجرات أوروبية. ومنها إنطلقت الحملات العسكرية لإحتلال باقي الشرق الجزائري. فكانت "المقاومة" الجزائرية عنيفة بقيادة شيوخ المنطقة وعلى رأسهم سي زغدود الذي لم يكتب عنه بشكل واف.

د/ احميدة عميراوي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
قسنطينة، الجزائر

Résumé

La ville de Skikda a connu plusieurs appellations telles que Stora, Fort de France ou Philippe-Ville. La colonisation française portait un grand intérêt à cette ville dès les premiers jours de la conquête d'Alger à cause de sa richesse forestière

Plusieurs fonctions sensibles furent attribuées à des dirigeants algériens, comme la direction du Sahel et de l'intérieur qui fût attribuée à des notables algériens tels que Ben Aîssa et Saoudi. Afin de poursuivre l'application de cette politique, la conquête militaire fut orientée vers la zone située entre Skikda, Jijel et Constantine.

C'est ainsi que la région de Philippe-Ville attira un nombre important de colons européens, surtout entre 1845 et 1850.

لا أجانب الحقيقة وأنا أقدم هذا الموضوع إن قلت: أنا في حيرة بين عديد من الأسئلة منها هل أقدم هذا الموضوع كعرض لمعلومات؛ فتكون تأريخا. أم أقدمه كعرض وتفسير فتكون تاريخا. فكانت قناعتي المزاوجة بينهما؛ خدمة للمرحلة، وتقديرا للظرف. و عليه سيكون موضوعي مؤسسا على النقاط الآتية:

1- مفهوم المقاومة.
2- احتلال سكيكدة.
1.2- الاهتمامات الفرنسية الأولى بمنطقة سكيكدة.
2.2- التوسع العسكري.
3.2- التوسع المدني.
3- نماذج من المقاومة بالمنطقة.

1 - مفهوم المقاومة

لمفهوم المقاومة أكثر من معنى فالمقاومة لغة ليس هو نفس المعنى في الفيزياء، أو المقاومة في الميكانيكا. وهو لغة يعني: مقاومة شيء لشيء آخر؛ كي يحل محله. وبناء على هذا يكون كل طرف جزائريا كان أو فرنسيا قد قاوم الآخر ليحل

© جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر2002.

محله. بينما تاريخيا أن الذي " قاوم " كرد فعل كان الجزائري ضد فعل هو" الفرنسي"، وعليه يكون المصطلح غير متطابق تاريخيا على معناه اللغوي لهذا يكون ارتياحنا في استعمال الجهاد بدل "المقاومة". فالجهاد دال وأعمق وهو خطاب ذلك العصر في مخيال الجزائريين آنذاك. وحتى نتجنب بعض المفاهيم التي تنطبق أكثر على التاريخ الفرنسي في مقاومته للغزو الألماني.

2- احتلال سكيكدة

1.2- الاهتمامات الفرنسية الأولى بمنطقة سكيكدة.

عرفت سكيكدة أسماء كثيرة فهي: ريسكادا، سطورة، فور دي فرنس، فيليب فيل. وكان الاهتمام الفرنسي بها منذ الأيام الأولى من دخولهم الجزائر العاصمة. وترجم هذا الاهتمام رجال السياسة الفرنسيين ومنهم القائد العام فوارول (Voirol ماي 1833- جويليا 1834) الذي ذكر وزير الحربية يوم 7جوان 1833 بأهمية سطورة في الماضي وبآفاقها في المستقبل التي قال عنها إنها ستكون بثروتها الغابية المشكلة لـ 60 % من المساحة الممتدة إلى عنابة مصدر ثراء لفرنسا. ولم يتردد دامريمون من جهته في مراسلة وزير الحربية يوم 12 ماي 1837 [1] مبرزا مكانة سطورة الهامة؛ داعيا إلى ضرورة تشكيل إدارة بحرية بها.

يترجم لنا هذا الاهتمام السبب الذي دفع السلطة الفرنسية إلى القيام بإرسال بعثات استطلاعية لمعرفة أوضاع المنطقة. إذ أنها كلفت عام 1835 ثلاثة جزائريين للقيام برحلة استطلاعية دامت ستة أيام تعرفوا خلالها على المنطقة الممتدة من عنابة إلى سطورة[2]. وبعد احتلال قسنطينة مباشرة دعت الضرورة أكثر إلى احتلال سطورة التي لا يمكن إلاّ بواسطتها الوصول إلى البحر بأقل التكاليف. بالإضافة إلى ما كانت تحظى به من وفرة الأخشاب التي كانت قسنطينة في حاجة إليها. وشجع الفرنسيين على الاحتلال أكثر خضوع قبائل كثيرة للسلطة الفرنسية. بالإضافة إلى ذلك فاحتلال ميناء سطورة كان يسهل عملية الوصول إلى ميناء القل الذي كان غاية الكثير من الضباط البحريين الفرنسيين.

تجسيدا لهذه الطموحات أمر برنار (Bernard) وزير الحربية الفرنسي يوم 10 ديسمبر 1837 حاكم قسنطينة بدراسة الإمكانات لاحتلال الشرق الجزائري بدءا بإقامة إدارة بحرية عسكرية بسطورة، أسوة بما كان يعمل به الرومان مع الشروع في تعبيد طرقات؛ منهم الطريق الرابط بين قسنطينة وسطورة. ورد فالي (Valée) الحاكم بقسنطينة على مقترحات الوزير يوم 4 جانفي 1838 مؤكدا على أهمية الأمر، ومفضلا ميناء سطورة منبها إلى صعوبة ذلك نظرا لموقف السكان من الفرنسيين، مقترحا

[1] كانت منطقة سكيكدة محل اهتمام فرنسا منذ سنوات سابقة عن الاحتلال الفرنسي. وفور الاحتلال قامت وزارة البحرية بوضع دراسة عن السواحل. وبعد الاحتلال تضاعف اهتمام القادة والحكام العامين الفرنسيين بالشرق الجزائري عامة. وبمنطقة سكيكدة خاصة. للمزيد من المعلومات يراجع:
Solal (A.), Philippeville et sa région (1837- 1870), Alger, p-p. 36-37.

[2] A. M. G., H226.

استعمال القوة الحربية لتثبيت هذا الأمر[3]. لم يتردد فالي في إعطاء أوامره لوضع دراسة طبوغرافية عن المنطقة. حيث قام ضباط الهندسة العسكرية بوضع تقرير دقيق عن المناطق الهامة، وعن المسافات الفاصلة بينها، وعن منابع المياه وطرق المواصلات الممتدة من قسنطينة إلى عنابة. يفهم من هذا التقرير أن السلطة الفرنسية توصلت إلى قناعة مفادها أن ربط قسنطينة بعنابة أمر صعب جدا وعليه لابد من الأخذ بأحد الأمرين: إما ربط قسنطينة بسطورة لتكون المنفذ الذي يمكن منه احتلال الشرق الجزائري كله وإما التخلي عن الاحتلال نهائيا[4]. لكن مستجدات ومعرفة أشياء كثيرة ساعدتهم على تطبيق سياسة الاحتلال من ذلك استقبال بعض السكان لهم وتزويدهم بمعطيات اعتمد عليها فالي في تنفيذ المرحلة الأولى من تعبيد الطريق الممتد من قسنطينة إلى الكنتـور (حوالي 40 كلم عن قسنطينة ناحية سطورة). بجانب ما وجدته السلطة الفرنسية من سهولة في استغلال هذه الأراضي لعدم مطالبة أهلها بها لأنها كانت أرض عزل (مثلما سيأتي ذكره في الحديث عن نظام ملكية الأرض) فهي أراضي خاصة بقادة أتراك وجزائريين كانوا في خدمة النظام العثماني. لهذا اعتبرتها فرنسا أرض ملك للدومان.

2.2- التوسع العسكري.

قرر فالي القيام بحملات عسكرية من قسنطينة إلى الساحل وبخاصة إلى سطورة. وكان ذلك مرهونا - حسب رأيه -باحتلال منطقة الحروش أولا. فكانت الحملة إلى سطورة بقيادة نيقريه (Négrier) حاكم قسنطينة يوم 7 أفريل 1838 على رأس قوة 2510 محارب. بمساعدة كل من الضابط نيال (Niel) وبعض الجزائريين. وصلت هذه القوة إلى الحروش يوم 8 أفريل، ثم إلى سطورة يوم 9 أفريل. وبوصولها تمكنت الحملة من تحقيق مكاسب كثيرة منها: انضمام بعض الشيوخ الجزائريين إلى الصف الفرنسي والتعرف على المنطقة ووضع دراسة طبوغرافية وتحديد الثروة الغابية. واختبار قوة السكان وردود فعلهم الأولى. فدعت الضرورة إلى التأكيد على احتلال الساحل كله، والشروع في تعبيد الطريق الرابط بين سطورة والكنتور. وقبل ذلك شرع في تعبيد الطريق الواصل بين الكنتور والحروش (حوالي 15 كلم). وما وصل يوم 6 أكتوبر 1838 حتى تجمعت قوة 4000 محارب فرنسي بالحروش تحت قيادة قالبوا (Galbois) حاكم قسنطينة عام 1838 إستعدادا لاحتلال سطورة بصفة نهائية. وبالفعل تم الدخول إليها يوم 8 أكتوبر 1838 [5].

---

[3] Solal (E.), Philippeville. p- p. 40 - 41.

[4] تقرير قائد الأركان في تاريخ 31 جانفي 1838، A. M. G. H 226

[5] حملت سكيكدة اسم فور دي فرنس (Fort de France)داية الاحتلال ثم أطلق فالي اسم فيليب فيل-(Philippe Ville)على المدينة يوم 11 أكتوبر تقديرا للملك لويس فيليب ووافق الملك على ذلك يوم 17 نوفمبر من نفس السنة. وجدت القوات الفرنسية بهذه المدينة آثارا قيمة. لمعرفة ذلك يراجع كلا من:

- Bernard (L.), Histoire de Philippeville 1838-1903, Philippeville 1903
- Ledrmann (E.), Phlippeville et ses environs, Philippeville 1935.

واستمرت الأشغال حثيثة بالمدينة قصد إعدادها إداريا وعمرانيا. ولم تنته الأشغال الكبرى بها إلا عام 1845. وفور احتلالها وفدت إليها خلال الأسبوع الثاني من الاحتلال 12 عائلة أوروبية. بالإضافة إلى التجار والخبازين وغيرهم. ولم تنته سنة 1838 حتى صار سكان المدينة 769 نسمة، وعام 1840 وصل العدد 924 نسمة[6]، ليتطور إلى 7863 عام 1851 [7] وعام 1860 كان العدد 13447 فردا يتوزعون على مساحة 16854 هكتار[8].

لم يتمكن الفرنسيون من التوسع بسهولة في هذه المنطقة إذ أنهم واجهوا مقاومة من السكان منذ البداية بلغت حسب الدراسات الفرنسية من القوة ما يزيد عن 3000 محـارب[9].

جاء هذا التطور لمدينة سكيكدة وفق سياسة رجال الاحتلال الذين بذلوا جهودا كبيرة لتوفير الظروف الملائمة للاستيطان. يتأكد هذا من المراسلات التي تمت بين القادة العسكريين وحكومتهم. التي أكدت على ضرورة استغلال الأراضي وتأسيس مدن عصرية منها فيليب فيل التي عمل فالي على تقوية الحماية بها وربطها بقسنطينة وتنقية جنوبها بتجفيف المستنقعات المتعفنة بها لمنع تفشي الأمراض. ومداواة المـرضى[10] وفتح علاقات قوية مع السكان بشراء حوالي 4000 رأس بقر و 2000 رأس غنم. وتضاعفت عملية التصدير إلى 2000 طن عام 1840 وتضاعف الربح إلى النصف على ما كان عليه عام 1839 [11] بجانب إسناد وظائف حساسة إلى قيادات فاعلة. منها قيادة الساحل والداخل إلى شيوخ جزائريين مشهود لهم بالقوة والتحكم منهم ابن عيسى

وصف سانت آرنو مدينة ريسكادا بالمدينة الجميلة، وقال كان يسكنها حوالي 1500 نسمة من مختلف الجنسيات، كانوا يسكنون منازل نصفها من خشب والنصف الآخر من الحجارة. رسالة سانت آرنو في تاريخ 11 ماي 1839:

Les premières années de l'Algérie française. Robert Laffont, Tours 1978, p-p. 69-70.

[6] A. M. G. H 228.

[7] عرفت المدينة هجرات أوروبية: إنجليزية ومالطية و إيطالية وأسبانية وألمانية وبرتغالية وروسية وهولندية وسويسرية ويونانية، بجانب الفرنسية التي كانت تشكل أعلى نسبة. كان مجموع من وفد على المنطقة خلال السنوات العشرة الآتية وبناء على بعض المصادر والدراسات منها :

A. M. G. H 230, H 226و (Solal (E. المرجع السابق ص. 165،163، 173. بناء عليها ففي سنة 1839 وفد حوالي 1700 فردا. وسنة 1840 حوالي 3847 أي بنسبة زيادة 3،126 %. وسنة1846 حوالي 5003، بنسبة زيادة 05،30 %. 1847 حوالي 5499، بنسبة 91،9 %. وسنة 1849 حوالي 6653 أي بنسبة 93، 20 %. تكون الزيادة خلال العشرة سنوات 4953 نسمة.

[8] A. M. G. H 230.

[9] ينظر (Solal (E. ، ص-ص. 46-47.

[10] من تلك المراسلات نذكر التي بعث بها فالي إلى وزير الحربية في تاريخ 16 نوفمبر 1838 للمزيد من التفاصيل يراجع: Solal (E) ص- ص. 147-148. ويراجع تقرير القيادة الفرنسية الداعي إلى ضرورة ربط مدينة عنابة بقسنطينة وربط شمال قسنطينة بواسطة طرق مواصلات، التقرير في تاريخ 26 مارس 1838 تحت عنوان :

" Sur les moyens à employer pour maintenir la communication avec Constantine", in. A. M. G., H 226.

[11] A. M. G. H 228.

والسعودي بن إينال[12] وبقيت القيادة العامة تحت إدارة عسكرية فرنسية[13].

وكان إصرار رجال الاحتلال كبيرا على فرض سياسة صارمة للتوسع في البلاد، الأمر الذي دفع فالي إلى رفض القرارات الصادرة من باريس[14] والقاضية بإشراك الإدارة المدنية في تسيير أمور الجزائر بجانب العسكريين. واستمر تعنت القادة الفرنسيين إلى غاية صدور القرار الوزاري المؤرخ بيوم 17 فيفري 1840 والقاضي بتعيين محافظات مدنية.

ولتطبيق هذه السياسة وجه القادة الفرنسيون حملات عسكرية رادعة منها إلى المنطقة الممتدة من قسنطينة إلى جيجل والقل تواصلت إلى عام 1858. من الحملات تلك التي قام بها بادو عام 1847 على رأس قوة 5616 من ناحية الميلية إلى القل. والحملة التي قام بها سانت آرنو إلى جيجل ناحية بني يدر في منتصف عام 1851على رأس قوة حربية 8811 [15] وكذلك الحملة التي قادها ماكماهون في منتصف عام 1852 بقوة 7814 محارب ضد سكان كل من أولاد عيدون وسيدي القوفي وبني توفوت وصلت إلى القل. ثم قاد حملة ثانية إلى ناحية جيجل ضد بني يدر نهاية عام 1853[16] . ومن الحملات القوية تلك التي قام بها قاستي (Gastu) (حاكم قسنطينة منذ عام 1857) خلال شهري أكتوبر - نوفمبر عام 1858على رأس قوة 4985 محارب إلى ناحية الميلية وإلى الوادي الكبير. حيث حاول فرض السيادة على سكان المنطقة الممتدة من ميلة إلى الميلية[17].

3.2- التوسع المدني

بجانب هذا التوسع العسكري كان التوسع المدني الذي قام على دعامتين أساسيتين هما الهجرة الأوروبية وبناء المستوطنات في شكل مدن فلاحية.

بمقتضى القرار الوزاري (17 فيفري 1840) تعين شيخ بلدية عنابة السيد فناش (Fenech) محافظا على مدينة فيليب فيل فمارس صلاحيات واسعة منها: محافظ

---

[12] يفهم من رسالة فالي إلى وزير الحربية في 4 أكتوبر 1838 أن فالي وافق على تعيين ابن عيسى خليفة على الساحل نظرا لمكانته ودرايته بالمنطقة وكفاءته بالنسبة لمن حوله من شيوخ المنطقة. وعين من ساعده من الشيوخ الأقوياء هو السعودي بن إينال من عرش بني مهنة السواحلية الذي أعلن ولاءه وتلقى البرنوس من الفرنسيين عام 1838. للمزيد يراجع Solal (E.), P. 31.

[13] كان إصرار القادة العسكريين على أن تكون الجزائر تحت حكم عسكري مستمر. يفهم هذا من سلوكيات الضباط الفرنسيين ومن مراسلاتهم كتلك التي بعث بها فالي يوم 16 نوفمبر 1838 إلى وزير الحربية التي جاء فيها ما يمكن ترجمته: إن الحكم العسكري هو القاعدة الأساسية التي يجب أن تكون عليها الجزائر. وما الحكم المدني إلا استثناء. وتطبيقا لهذه القناعة كان الذين حكموا فيليب فيل هم على التوالي الكولونال فايون (Vaillant) جوص (Josse) لكولونال لافونتان (Lafontaine) الكولونال دالفونس(d'Alphonse) بريس (Brice) الجنرال لفاسار (Levasseur) الكولونال بارتلمي(Berthelemy) .

[14] من القرارات والمراسيم التي رفضها فالي المرسوم الملكي الصادر يوم 31 أكتوبر 1838 ينظر Solal E. p. 100.

[15] A. M. G., H230.

[16] A. M. G., H211, H214.

[17] تتوفر معلومات هامة حول هذه الحملة، وحول مراسلات قاستي بالعربية إلى سكان المنطقة في:
A. O. M, 2H 27. و A. M. G., H265.

ومتصرف إداري ثم قاضي تجاري[18]. وبقيت فيليب فيل محافظة مدنية تابعة لعنابة إلى غاية صدور قرار 10 ديسمبر 1842، الذي بمقتضاه انتقلت المدينة من محافظة إلى دائرة برئاسة ديسير لويس (Dessert Louis). وفي 9 فيفري 1843 تأسست بلدية واسعة المهام. وفي 1 فيفري 1844 تأسس مكتب الشؤون العربية ليقوم بمهمة التنسيق بين السلطتين العسكرية والمدنية وبينهما وبين السكان. وليقوم أيضا بجمع الضرائب وفض النزاعات بين الجزائريين وتجنيدهم[19]. وفي 15 أفريل سنة 1845 صدر قرار نص على أن تسير الناحية بثلاثة أجهزة إدارية: الأولى مدنية والثانية عسكرية والثالثة مختلطة.

وكان لمكتب الشؤون العربية دور فاعل في توجيه السياسة الفرنسية، وكان يديره بجانب الرئيس كل من المساعد الذي كان برتبة ضابط والنائب والكاتبين فرنسي وجزائري والشواش وشيوخ القبائل منهم الشيخ بوروبي والقائد السعودي. وبمساعدة هذا المكتب قسمت دائرة فيليب فيل إلى قيادات خمس: الأولى كانت قيادة المدينة والثانية قيادة بني مهنة التي كانت تمتد من القل إلى الحروش أدارها القائد السعودي. والثالثة قيادة العلمة شمال قسنطينة أدارها بوروبي. والرابعة قيادة أولاد عطية التي امتدت من جنوب إلى جنوب غرب الحروش. والخامسة قيادة رجاتة الممتدة من جنوب شرق فيليب فيل إلى ليدوغ[20].

ولتثبيت هذه السياسة الفرنسية القائمة على الأجهزة الإدارية الثلاث كان التفكير في تأسيس المدن الفلاحية، فكان التوسع المدني مرهونا بالتوسع العسكري. وكانت الحروش من المناطق الهامة التي تفطنت إليها السياسة الفرنسية وشرعت في إنشاء مدينة فيها يوم 22 مارس عام 1844على مساحة 1621 هكتار. ثم قامت بتوسيع المدن الفلاحية مثل سان شارل (رمضان جمال) يوم 6 أفريل عام 1847 على مساحة 990 هكتار. وروبرت فيل (مجاز دشيش) يوم 16 نوفمبر من نفس السنة على مساحة 890 هكتار. وفي نفس اليوم والسنة تأسست مدينة قاستنفيل (صالح بوشعور) على مساحة 535 هكتار. ومدينة جيمابس (عزابة) تأسست يوم 14 فيفري عام 1848 على مساحة 2850 هكتار[21].

---

[18] واصل فناش مهامه على رأس المجلس البلدي لمدينة سكيكدة إلى غاية 8 ماي 1841، وخلفه لابين (Lapaine).

[19] أدى لابين مهامه إلى غاية 1846، ثم خلفه فيسون .(Fisson) وتعين السيد آدام (Adam) على رأس مكتب الشؤون العربية من 1844-1848، وخلفه على هذا المكتب السيد بوتي (Boutet) من عام 1848 إلى 1849. للمزيد يراجع:

Solal (E.), p-p. 109-112.

[20] للمزيد يراجع: المرجع نفسه. ص-ص. 113-114 .

[21] أسماء المدن المذكورة بين قوسين معتمدة بمرسوم رقم 65 - 246 في تاريخ 30 سبتمبر عام 1965، الجريدة الرسمية، العدد 86، الجزائر 1965 .

تبين لنا من خلال الدراسة الواسعة أن مدنا فلاحية كثيرة تأست؛ بلغت ما بين عامي 1841 إلى 18450 حوالي 126 مدينة فلاحية عبر أنحاء الجزائر وعلى مساحة 113000 هكتار. ينظر :

Ghislaine (M.), L'évolution de la culture et de la production du blé en Algérie de 1830 à 1939, Larose, Paris, 1954, p. 34.

وتأسست حوالي 68 مدينة فلاحية ما بين عامي 1851 إلى 1859، ينظر:

Ayach (G.), Quarante quatre ans d'histoire de l'Algérie contemporaine (1827-1871), Rabat, 1963.

وبتأسيس هذه المدن الفلاحية تم توزيع أجود الأراضي على المعمرين الأوروبيين، إذ وزعت حوالي 20 ألف هكتار عام 1846 على المهاجرين؛ وهذا في السهول الممتدة من الحروش إلى فيليب فيل فقط. فعرفت المنطقة زيادة سكانية هائلة، مثلا كان الحروش عام 1843 مركزا عسكريا لكن السلطة الفرنسية حولته إلى مستوطنات بدءا بيوم 22 مارس 1844 ووزعت 1621 هكتار على المعمرين. وفي مارس عام 1845 كان عدد سكان مدينة الحروش لا يتعدى 67 ساكنا أوروبيا، وعدد منازل الأوروبيين لا يزيد على الـ 45 منزلا [22] وفي أكتوبر من نفس السنة وصل العدد إلى 178 ثم ازداد عدد السكان عام 1849 إلى حوالي 252 فردا ثم في عام 1854 كان العدد 522 أوروبيا.

من خلال الدراسة المعمقة يتبين أن المنطقة المشكلة لمثلث رؤوسه: قسنطينة وعنابة وفيليب فيل قد عرفت إقبالا كبيرا من المهاجرين الأوروبيين، خاصة خلال السنوات الممتدة من 1845-1850. إذ أنه من 31 ديسمبر 1846 إلى 31 ديسمبر من عام 1850 تعدى مجموع المهاجرين الأوروبيين إلى هذه المنطقة من 11507 إلى 24672 فرد، ليصل نهاية عام 1851 الـ 27382 مهاجر. ليكون نهاية عام 1856 حوالي 33979 [23]. بناء على ما توفر لنا من مصادر تركها لنا الفرنسيون يمكن ذكر عينات من عدد المهاجرين الأوروبيين في ناحية كل من فيليب فيل وهذا اعتمادا على إحصاء سنة 1860 [24].

كانت هذه الهجرة الأوروبية محل اهتمام كبير من طرف الفرنسيين والأوروبيين؛ سياسيين ومفكرين. وقد أثارت تساؤلات كبيرة، منها: هل تكون الهجرة فرنسية؟ أم أوروبية؟ وهل تكون تلقائية حرة؟ أم انتقائية منظمة؟ وحول هذه التساؤلات كانت مشاريع كثيرة. وكان للتيارات الفكرية دور فاعل فيها، وفي مقدمتها السان سيمونية التي اعتبر رئيسها الأب الروحي أنفانتان (Enfantin) الجزائر والقاهرة البوابة الواسعة

المدينة	أوروبيون	جزائريون	يهود	المجموع	المساحة هك
فيليب فيل	11868	1469	119	13456	16854.12
جيمابس	902	69	35	1006	7562.95
سان شارل	334	1043	00	1377	5392.45
قاستنفيل	333	359	00	792	2832
المجموع	13437	2940	154	16631	32641

للدخول إلى البلاد العربية الإسلامية. ولم يتوان يوما في تكريس مشروع وضعه بمعية السان سيمونيين؛ وهو مشروع خاص باستعمار الجزائر وتعميرها بهجرة أوروبية

[22] ينظر Solal (E.), op. cit., p. 204 .

[23] تقرير القيادة الفرنسية، A. M. G., H 230 وكذلك:

Noushi (A.), Enquête sur le niveau de vie des populations constantinoises, de la conquête jusqu'à 1919, P.U.F. Paris 1961, p. 190, 238.

[24] تقرير قيادة الأركان A. M. G., H230

واسعة مفضلا الألمان[25] في حين أن غيره فضل الأيرلنديين بحكم انهم كانوا أكثر الشعوب الأوروبية إنتاجا في أمريكا[26].

وأحدث موضوع الهجرة الأوروبية مشاكل كثيرة للسلطة الفرنسية يمكن تلخيصها في: كيفية التغلب على الهجرة الأوروبية؛ وإعطاء الهجرة الفرنسية الحظ الأكبر. والثانية تمثلت في إحداث توازن بين المعمرين المدنيين والعسكريين. والثالثة كانت حول التأقلم مع ظروف طبيعية ومناخية متميزة عن الظروف الأوروبية. والرابعة واجهتها مع الجزائريين، وبخاصة، ومع أراضيهم. وحول كيفية استغلالها مستوطنات. وهل يكون ببناء المنازل أم بإسكان المستوطنين في خيام؟ وكان بيجو من أنصار الرأي الثاني وحجته أن في هذه الوسيلة ربحا للوقت والأموال، وسرعة في توزيع الـ 160 ألف هكتار المحيطة بقسنطينة وهي من أجود الأراضي التي استولى عليها الدومين بعد أن كانت بيد العثمانيين والأعيان. وبعد أن تم إنشاء 120 ضيعة فلاحية على طول الطريق الممتدة من قسنطينة إلى عنابة. وقدم بيجو مشروعا قويا لحكومته دعا فيه إلى ضرورة إقامة المستوطنات الأنموذجية بأقل التكاليف؛ واقترح منح الأراضي للأوروبيين مدنيين وعسكريين مع السماح للاستثمار الرأسمالي الأوروبي بتشجيعه على إنشاء أكثر من ضيعة فلاحية ومشاريع اقتصادية أخرى. والسماح كذلك للأعراش بتمليك الأرض عن طريق شيوخها[27]. ولم يجد هذا المشروع الذي قدمه الحاكم العام مساندة من بادو حاكم قسنطينة، الذي تريث في تطبيقه بقناعة منه مفادها أن ذلك يعدّ أكثر الضمانات للوجود الفرنسي في الجزائر. والحفاظ على المصالح الفرنسية في ظل السيطرة العسكرية زيادة على ذلك فهذا يعد أمرا مرهونا بتطوير المجتمع الجزائري، واحترام حقوقه وعاداته.

وعلى ما يبدو أن بادو تفطن إلى صعوبة تطبيق المشروع الذي قدمه بيجو نظرا للتناقض الكبير بين الجزائريين والأوروبيين، لأن الأوروبي كان يرى من السهولة بمكان الاستيلاء على الأرض بطرق متعددة منها: شراء أراضي الجزائريين. في الوقت الذي كان الجزائري متمسكا بأرضه مثلما كان متمسكا بأضرحة الأولياء وبأجداده، فالأرض بالنسبة إليه تمثل أكثر من رمز، فهي هوية أكثر مما هي مورد رزق.

وعلى الرغم من الاختلاف الحاصل بين كل من بيجو وبادو (حاكم قسنطينة عام 844) إلا أنهما كانا متفقين حول ضرورة التعايش السلمي بين الأوروبيين أنفسهم وبينهم وبين الجزائريين، باعتماد لهم أراض وتأسيس مدن فلاحية لهم، على أن يدفع

---

[25] تعود اهتمامات السان سيمونيين بالجزائر إلى فترة ما قبل الغزو الفرنسي لها. وفور احتلالها كان لهم حضور قوي في توجيه السياسة الكولونيالية. وكان للأب أنفنتان الذي زار الجزائر دور في الهجرة الأوروبية، إذ تمكن من تهجير 827 ألمانيا إلى الجزائر. للمزيد من المعلومات يراجع كل من :

- Enfantin, la colonisation de l'Algérie, Bertrant, Paris 1843.
- Marcel (E.), les St - Simoniens en Algérie, Paris 1941.
- Georges Yver, " Enfantin et l'imigration étrangère en Algérie ", in. R. A. n° 59, anneé 1918, O. P. U. Algérie 1971, p-p. 145 - 165.

[26] George Yver, "Les Irlandais en Algérie", in. R. A. n° 60, année, 1919, O.P.U. Algérie 1971, p-p. 170-223.

[27] ينظر Solal. op. cit. p. 193,195 .

الجزائريون ضرائب[28] ورأى فالي في هذه السياسة خطورة على فرنسا خاصة من طرف المستوطنين الأغنياء الذين وصفهم بأصحاب الأيادي المكسورة، والأنياب الطويلة.

وتمكن أصحاب رؤوس الأموال الأوروبيين من إقناع النواب بباريس الذين وافقوا على منحهم امتيازات اقتصادية واسعة في الجزائر. ولنا أن نتساءل عن أسباب الاختلاف بين القادة العسكريين في الجزائر. من خلال الدراسة تبين لنا أن للانتماء العقائدي تفسير فمثل هذه المواقف المختلفة ليست بالغريبة من بادو الذي كان ينتمي إلى التيار السان سيموني. هذا التيار الذي كان له حضور في الجزائر مثلما سبقت الإشارة إليه، حيث كان وراء مشاريع عمرانية كثيرة كتعبيد الطرق والتهيئة العمرانية والتوسعات العسكرية والتفكير في مد السكك الحديدية ابتداء من عام 1844 من قسنطينة إلى عنابة، ومن قسنطينة إلى باتنة وسطيف، وبدأت الأشغال رسميا في هذا المشروع ابتداء من عام 1860. وكان النجاح كبيرا منذ عام 1870 [29].

3- نماذج من " المقاومة " بالمنطقة.

مما تقدم يتبين لنا التوسع الفرنسي في منطقة الشمال القسنطيني والسياسة التي طبقها. مثلما تتبين لنا كذلك أهمية الأرض. والسؤال كيف كان موقف الجزائري من هذا التوسع؟

هذه المقاومة التي فضلت تسميتها بالجهاد تحدث عنها الكثير من الباحثين الجزائريين أكثر في مناطق أخرى من الوطن غير منطقة الساحل، باستثناء الفرنسيين الذين دونوا بعض أحداثها. وعليه هل يمكن الحديث عن موقف سكان المنطقة من مشروع الحملة المصرية على الجزائر عام 1829؟ وهل يمكن معرفة المواقف الأولى للجزائريين بهذه المنطقة من سقوط الجزائر العاصمة، وبالتالي من سقوط عنابة وقسنطينة؟ إن المادة الخبرية قليلة جدا، ولكن قليلها يؤكد أن سكان المنطقة كانت لهم ردود فعل قوية، إذ انضم الكثير من السكان إلى صف الحاج أحمد باي منذ أن عاد من الجزائر العاصمة عام 1830. واستمر السكان في جهادهم حيثما وطأت أقدام الفرنسيين.

---

[28] فرضت السلطة الفرنسية ضرائب كبيرة على أعراش كثيرة، حيث بلغت قيمة ما دفعته كل من بني مهنة وبني ولبان وبني صالح وبني إسحق وبني توفوت وأولاد عطية وأولاد جبابرة وأولاد الحاج والمجاجدة والزرامنة والتعانبة 37575 فرنك عام 1847. و42090 فرنك عام 1848. للمزيد من المعلومات يراجع Noushi. op. cit. p. 206.علما وأن ثمن القنطار من القمح خلال السنتين المذكورتين تعدى االـ 20 فرنكا. وبناء على دراسة Noushiالمرجع نفسه. ص. 225 أن مجموع ما دفعه سكان الشرق إلى الخزينة الفرنسية من حكر وعشر عام 1848 قد بلغ 548. 299 فرنك. وعام 1850 بلغ 059. 657. 1 فرنك. في وقت عرفت فيه هذه المنطقة أوبئة ومجاعات. ونزولا عند الحاجة سمحت السلطة الفرنسية للجزائريين بتأسيس مستوطنات فلاحية في أراضيهم الشرعية، نذكر منها ما كان عام 1858، في: بني مهنة وعيشاوة وفليفلة وعرب سكيكدة ورجاتة وجندل وقرباز وبني مروان وزردازة والتلاغمة وأولاد عبد النور وأولاد بوعزيز وبني قائد وبني عزالدين وموالفة وبني فوغال والعلمة، الخ. المرجع نفسه، ص. 279.

[29] كان مشروع إنشاء مواصلات من السكك الحديدية قديما؛ وكان أول من فكر فيه السان سيمونيون حيث اقترح إيميل برار (Pereire) السان سيموني في جريدة (le national) الصادرة يوم 25 أوت 1833 إنشاء خط مواصلات بين الجزائر ومرسيليا، ومد خط سكة حديد بين كل من قسنطينة وعنابة ووهران والجزائر ينظر:
Marcel (E.), les St- simoniens. p. 25

وأسماء كثيرة لمجاهدين جزائريين ذكرت خلال هذه المرحلة. ونغتنم هذه الفرصة لنتحدث عن مجاهد من خلال وثيقة محفوظة بأرشيف وزارة الحربية الفرنسي ونعني به سي زغدود.

من هو سي زغدود؟ لم نتمكن من التعرف على حياته؛ رغم البحث الطويل، إذ سبق وأن أشرت إليه عام 1984 [30].

وما عرف على هذا المجاهد أنه ثار عام 1842، وتولى قيادة المنطقة الممتدة من عنابة (ليدوغ) إلى الميلية. وأعلن نفسه سلطانا ثم عين خلفاء له. وأعد جيشا قوته 6500 محارب. اعتمد حرب العصابات على مراكز الجيش الفرنسي، وعلى منشآته؛ سواء في الحروش أو الكنتور. اغتيل غدرا عام 1843. ونحاول تقديم ما يمكن ترجمته من وثيقة نادرة هي تقرير القائد العام لمدينة سكيكدة العقيد بريس وعنوانها: تقرير حول الحملة الموجهة ضد المرابط سي زغدود بالجبال الممتدة ما بين مخيم الحروش إلى القل في تاريخ 1- 4 ماي 1842، معركة جبل حايب يوم 3 ماي 1842. التقرير مؤرخ بفيليب فيل في 9 ماي 1842 مرسل إلى حاكم الجزائر. والتقرير يتكون من 11 صفحة من الحجم الكبير يتضمن معلومات قيمة منها:" أن الشيخ سي زغدود لم يجد من المساعدة في ليدوغ ما يمكنه من مواصلة المقاومة، فلجأ إلى ضواحي مخيم الحروش حيث أستقبل بحرارة وأسس قوة حربية، إذ لم يمر يوم إلا وقواته تضاعفت بفضل مساندة الجزائريين القاطنين في كل من سكيكدة والحروش والقل. وتؤكد لنا المعلومات أن خطرا حقيقيا يهددنا، الأمر الذي يجعلني على أهبة الاستعداد دائما. وقد أمر سي زغدود الجزائريين الساكنين على جانبي الطريق بالرحيل والالتحاق به ليقطع أية مساعدة يمكن أن يقدموها للفرنسيين. وحتى لا يبقى الطريق آمنا لمن يتنقل من قسنطينة إلى الحروش. وجاء في هذا التقرير: أن المعركة التي دارت بيننا وبين سي زغدود قد شاركت فيها قبائل كثيرة أهمها: زردازة ومجاجدة وبني توفوت وبني صالح وأولاد الحاج وأولاد عطية وبني ولبان وبني اسحق والثعانبة وبني بشير وبني بونعيم وأولاد بالعفور وأولاد عيدون وبني صبيح وبني قائد وبني خطاب وأولاد مبارك ومولاي شقفة. وبموت سي زغدود لم تتوقف المقاومة وتواصلت بقيادة شيوخ كثيرين منهم ابن يمينة"[31].

مما تقدم نخلص إلى أن مدينة سكيكدة عرفت أسماء كثيرة مثل سطورة، فور دي فرنس، فيليب فيل. وكان الاهتمام الفرنسي بها منذ الأيام الأولى من دخولهم الجزائر العاصمة حيث قال عنها Voirol إنها ستكون بثروتها الغابية المشكلة لـ 60 % من المساحة الممتدة إلى عنابة مصدر ثراء لفرنسا. لهذا كانت الحملة الفرنسية إلسطورة بقيادة نيقريه (Négrier) حاكم قسنطينة يوم 7 أفريل 1838 التي وصلت إليها يوم 9 أفريل. وتم الدخول إلى المدينة كلها يوم 8 أكتوبر 1838.

بعدها أسندت وظائف حساسة إلى قادة جزائريين منها قيادة الساحل والداخل إلى

---

[30] يمكن مراجعة ما قلناه في كتيبنا: جوانب من السياسة الفرنسية وردود الفعل الوطنية في الشرق الجزائري، البعث، قسنطينة 1984، ص. 73.

[31] A. M. G. H 209.

شيوخ جزائريين مشهود لهم بالقوة والتحكم ومنهم ابن عيسى والسعودي بن إينال. وللاستمرار في تطبيق هذه السياسة وجه القادة الفرنسيون حملات عسكرية رادعة كانت منها إلى المنطقة الممتدة من قسنطينة إلى جيجل وتواصلت إلى عام 1858.

وبقيت فيليب فيل محافظة مدنية تابعة لعنابة ثم انتقلت المدينة من محافظة إلى دائرة وفي 9 فيفري 1843 وفي 1 فيفري 1844 تأسس مكتب الشؤون العربية. وبمساعدة هذا المكتب قسمت دائرة فيليب فيل إلى قيادات خمس: الأولى قيادة المدينة والثانية قيادة بني مهنة التي كانت تمتد من القل إلى الحروش أدارها القائد السعودي. والثالثة قيادة العلمة شمال قسنطينة أدارها بوروبي. والرابعة قيادة أولاد عطية التي امتدت من جنوب إلى جنوب غرب الحروش. والخامسة قيادة رجاتة الممتدة من جنوب شرق فيليب فيل إلى ليدوغ. عرفت المنطقة المشكلة لمثلث رؤوسه: قسنطينة وعنابة وفيليب فيل إقبالا من المهاجرين الأوروبيين خاصة خلال السنوات الممتدة من 1845-1850. أمام هذا التوسع ثار سكان المنطقة ضد الفرنسيين بقيادة سي زغدود عام 1842 الذي أعد جيشا قوته 6500 محارب اغتيل غدرا عام 1843.

مصادر ومراجع معتمدة

- A .M .G., H 211, H214, H226, H228, H230.
- A .O .M., 2H27.
- Ayach (G), "Quarante quatre ans d'histoire de l'Algérie contemporaine (1827-1871)", Rabat, 1963.
- Bernard (L), "Histoire de Philippeville, 1838-1903", Philippeville, 1903.
- Enfantin, "La colonisation de l'Algérie", Bertrant, Paris, 1843.
- Ghislaine (M), "L'évolution de la culture et de la production du blé en Algérie de 1830 à 1939", Larose, Paris 1954.
- Georges Yver, " Enfantin et l'imigration étrangère en Algérie ", in R.A., n°59, 1918, O.P.U. Algérie, 1971.
- George Yver, "les Irlandais en Algérie", in R.A., n° 60, 1919, O. P. U., Algérie, 1971.
- Ledrmann (E .), "Phlippeville et ses environs", Philippeville, 1935.
- Larcher, "Traité élémentaire de législation algérienne", 3e Ed. Rousseau, Paris, 1923.
- Marcel (E .), "Les St-Simoniens en Algérie", Paris, 1941.
- Noushi (A .), "Enquête sur le niveau de vie des populations constantinoises, de la conquête jusqu à 1919", P.U.F., Paris, 1961.
- Solal (E .), "Philippeville et sa région (1837- 1870)", Alger.
- St- Arnaud, "Les premieres années de l'Algérie française", Robert Laffont, Tours, 1978.
- Temimi (A.), "Le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed", PUB de la R.H.M., Tunis, 1987□